١ - رحلة الى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للاستاذ سامح الخالدى

كانت رحلة الشيخ البكرى هذه إلى بلاد الروم هى الثانية فقد رحل قبلا إلى الآستانة سنة (١١٣٥ هـ) وأسماها « تفريق الهموم وتفريق الغموم فى الرحلة إلى بلاد الروم » ولكننا لم نعثر على هذه الرحلة ضمن مجموعة رحلات الشيخ المخطوطة والمحفوظة فى خزانة الكتب الخالدية ، والتى علق عليها الشيخ البكرى نفسه ، الحواشى عليها

وفى رأينا أن هذه الرحلة من ألطف وأشيق رحلات البكرى ، فقد قطع فيها الشيخ مسافات شاسعة برا وبحرا ، إذ توجه إلى الآستانة عن طريق طوروس وقونية ، وعاد فى مركب إلى الإسكندرية مارا بسواحل الأناضول وجزيرة رودس

ويلاحظ أن الشيخ البكرى لم يكن يترك الفرصة تمر لنشر طريقته الخلوتية ، حيث كان ، ولهذا لم يكن يحجم عن إدخال جمهور المريدين فى طريقته سواء فى المدن أو القرى ، وسواء أكان مقيما أم مسافرا ، بل ما قولك أنه لم يتردد فى إدخال المريدين إلى طريقته وهو فى الركب فى ميناء الآستانة ؟

ولقد كان الشيخ البكرى ، ذا نفوذ عظيم ، وقد كثرت أشياعه وأتباعه ، فقد كان له أتباع فى أكثر القرى والمدن الفلسطينية ، كما كان له مريدون فى طرابلس الشام ، وحمص ، وحماه وحلب ، وبغداد والبصرة ، ومصر ، والإسكندرية ، ودمياط ورشيد

ولم يوفق الشيخ فى دعوته فى أواسط الأناضول فقد حاول أن يستميل إليه البعض فى مدينة (أركلة) الأناضولية التركية ولكنه لم ينجح ، ذلك لأنهم كانوا أتباع الطريقة (الزادلية) وهى طائفة تنتسب إلى قاضى زاده أجل علماء الروم ممن كانوا يقولون بهدم قبور الأولياء ومقاومة التصوف ، وقد جرب الشيخ إقناعهم ففشل ويئس منهم وقال إنه ليس ثمة من فائدة لمباحثة أمثال أولئك

ولقد كان الشيخ حريصا على أن يسير فى موكب حافل حيث ذهب وحيث حل ، ولذا نراه فى هذه الرحلة بدلا من أن يسلك الطريق السلطانى من القدس إلى الشام عن طريق نابلس ، فجنين ، فخان التجار فجسر بنات يعقوب فالقنيطرة فدمشق ، يسلك طريقا فى داخلية البلاد ، فينضم إليه الحاج حسن بن مقلد الجيوسى شيخ بنى صعب والشيخ أحمد الباقانى والحاج سلامة الدماميني ، والحاج حسن الجاعيلى والحاج محمد الكفرعينى من شيوخ جبلى نابلس والقدس

ويصف الشيخ لنا الطريق ، ويعجب من عمران منطقة النصيرية وكثرة زيتونها ، وخراب سور أنطاكية ، ويذكر وعورة الطريق من أنطاكية إلى أدنه فقونية ، وشدة برد الأناضول فى الصيف

وينزل الشيخ فى مدرسة شمسى باشا فى الآستانة ، ولشمسى باشا هذا الذى كان حاكما للشام ، مدرسة باسمه فى دمشق ، ويتقبل دعوة ابن عمه السيد محمد خليل البكرى وكان شيخا (أى رئيسا) لمدرسة حسن باشا المقتول فى الآستانة (قتل ١٠٠٦ هـ)

ومن العجب حقا أن يكون الشيخ فى سفرته هذه وفى غيرها دائم الاتصال بإخوانه ومريديه ، فتراه يحرر لهم الكتب ويرسل لهم القصائد من كل مكان ، كما يتلقى منهم الأجوبة على كتبه وكلها تصف شوقهم إلى لقاء الشيخ والاجتماع به

فمن ذلك أن سليمان باشا العظم والى الشام عتب على الشيخ عدم مكاتبته له من الآستانة ، فبعث الشيخ يعتذر لجناب الوالى ويذكره أنه أرسل له سلاما خاصا عن طريق كتاب بعث به إلى صديقه الحاج حسن جلبى بن مكى العزى ، وقد كان فى معية

---

(١) مخطوط فى المكتبة الخالدية فى القدس . ولد الشيخ البكرى سنة (١٠٩٩ هـ - ١٦٨٧ م) وتوفى سنة (١١٦٢ هـ - ١٧٤٨ م)

الباشا ، ثم يقول له إن المانع من مكاتبته هو مراعاة مقام الباشا الخطير !

ومما يلفت النظر أن الحاج خليل بن كشيش شيخ مقاطعة الرجيل فى العراق ، وقد كان آنذاك فى الآستانة اندرج فى سلك المتصوفين وأصبح من أعوان الشيخ ، وكان الحاج خليل هذا قد اجتمع بالشيخ البكرى يوم زار العراق

وكان من عادة الشيخ أن لا يتحرك فى سفر ، قبل أن يستخير الله ، فإذا ماظهرت الإشارة مبثة بالسفر فعل ذلك ، على اعتبار أن إرادة الإنسان الضعيف فى الرحلة والسفر ، مرتبطة بإرادة الله ، وأن ذوى الكشف الربانى ينتظرون ظهور مثل تلك الإشارة قبل التحرك من مكانهم

ومع أن الطريق البرى استغرق من ٢ ربيع الأول إلى حوالى منتصف جمادى الأولى الوصول من دمشق إلى الآستانة فإن الرحلة البحرية فى المركب لم تستنفد أكثر من أربعة عشر يوما إذ ترك ميناء (بشك طاش) فى الآستانة فى السابع من رجب ووصل الإسكندرية فى ٢١ منه

وعجيب حقا ما كان يبديه الشيخ من النشاط فى بث دعوته ، فهو كالحركة الدائمة لا يهدأ فى نشرها بين كبار الحكام ، وشيوخ الأقطاع ، وطبقة التجار ، بل وطلاب الأزهر المجاورين من صغار الشبان !

ويصف لنا الشيخ سوء معاملة رجال المكس فى الإسكندرية ويشكو مر الشكوى منهم ، ومن الغريب أن ينطبق هذا على ما وصفه لنا ابن جبير فى رحلته عن (جرك) الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى !

ولم يهدأ الشيخ فى نشر دعوته فى الإسكندرية ورشيد والقاهرة ، وهو يصف لنا أشهر مشاهد هذه المدن المصرية ، ويذكر لنا من اجتمع إليهم من كبار مشايخ عصره ، وقد أخذ البعض منهم عنه الطريق كالشيخ الحفناوى

ويلاحظ أن الشيخ انتهز عودة الوزير المشير عثمان باشا فانضم إلى القافلة العائدة من مصر إلى فلسطين

ويذكر الشيخ بألم ظاهر ضعف الحكام ، وعدم حزمهم للضرب على أيدى قطاع الطرق فى هذا الطريق العالمى ، ويعجب من ضعفهم ، ومما لا ريب فيه أن القوافل كانت تتعرض لتعدى العربان وأذاهم ، وقد كان الشيخ يفقد بعض كتبه فى هذه الغارات مما كان يؤلمه ويحز فى نفسه

ويصف لنا الشيخ حسن استقباله فى غزة ، ويذكر خراب جامع هذه المدينة ، كما ينزل ضيفاً على آل الخيرى ، ومنهم مفتى الرملة ، وقد كان من مريدى الشيخ وأتباع طريقته

ولا ريب أن الشيخ البكرى ، القطب المتصوف ، إنما كان يرحل هذه الرحلات لنشر طريقته وإكثار مريديه ، وإذا كان أسلوبه ، وتفكيره وجل همه موجها إلى هذه الناحية ، فإنه لا مراء قد ترك لنا ثروة ذاخرة بالمعلومات والآثار مما يلقى ضوءا على حالة البلاد ومشاهدها ، ورجالها وحكامها ، والأمن العام فيها فى القرن الثانى عشر الهجرى

وقد يقال إنه لم يصف لنا وصفا موضوعيا ما شاهده من المدن والقرى والمعاهد ، ولم يفصل حيث أوجز ، ولكن لو لم يكن الشيخ متصوفا لما قام بهذه الرحلات ، ولكنا حرمنا من هذه المعلومات القيمة ، ولكانت معرفتنا لهذا القرن المتأخر ضئيلة زهيدة

ولنترك الشيخ البكرى الآن يصف لنا رحلته الرومية الثانية :

مقدمة الرحلة :

يقول الشيخ : « وبعد قد أيقظ الحق جل وعلا وتبارك وتعالى ، لحظ فؤاد ملاحظ فى حبه بتعالى ، وكان جال فى ميدان الغفلة مجالا يسرح فى أكنافه ويحوم ، فحرك منه الساكن والجزء الراكن ، لهذه الأماكن ، ودعاه قلباه إلى ديار الروم (أى الترك) وهناك اشتد محلول العزم ، وامتد قصير الحزم ، واعتد القلب بعدة الجزم ، لما آن للمقصد أن يقوم ، وذلك فى أوائل عام (١١٤٨ هـ) ـ (١٧٣٥ م) ، ما كرف عبير عنبر خيشوم »

وكان الشيخ قد رحل إليها سنة (١١٣٥ هـ ـ ١٧٢٢ م) ودون ذلك فى كتاب موسوم « بتفريق الهموم وتغريق الغموم. فى الرحلة إلى بلاد الروم [٢] وأنشأ فى هذه الحظرة رسالة سماها

(٢) لم نعثر على هذه الرحلة بين مجموعة رحلات البكرى

(العرائس القدسية . الفصحة عن الدسائس النفسية) وكان الواسطة فى كتابتها العلم المفرد السيد محمد النافلانى (مفتى الديار القدسية)

ولما فارق بلاد الروم توجه إلى جهة العراق ودون رحلته إليها فى ما سماه (كشط الصدا وغسل ألوان فى زيارة العراق وما والاها من البلدان) ووصل البصرة وعاد فأقام فى حلب نصف عام ؛ وتوجه منها إلى دمشق وأقام فيها بعض أيام ، ثم قصد زيارة القدس عن طريق جبل لبنان وكتب رحلته (أردان حلة الإحسان . فى الرحلة إلى جبل لبنان)

وفى سنة (١١٤٥ هـ) توجه إلى الحج وكتب رحلته (الحلة الرضوانية الإنجازية الدانية . فى الرحلة الإحسانية الحجازية الثانية) وأما رحلته الأولى للحجاز فأسماها (الحلة الحقيقية لا المجازية . فى الرحلة الحجازية)

ولما عزم على التوجه إلى البلاد الرومية ، كتب كتابا إلى السيد محمد نجل السيد أحمد ، وقصد فى هذه الأثناء غب عشر المحرم التوجه إلى الزيارة الخليلية كعادته ومنها إلى نابلس فدمشق فديار الروم ، وقد أسمى هذه الرحلة (النحلة القانية بها رسوم الهموم والغموم . فى الرحلة الثانية القدوم لديار الروم)

قال الشيخ : « لما كان يوم الاثنين الرابع عشر من محرم الحرام عام (١١٤٨ هـ) توجه كبير الأنام كبير الإجرام بعد ما ودعنا أولاداً أكباداً وخلاناً ، وكان هم فرقة الأولاد مرجوانب الفؤاد ، وخرج للوداع جم غفير من إخوان وأحباب ، وودعناهم عند سمد وسعيد (٣) وكان منهم البنية السعيدة والولد السعيد ، (علما ومحمد كمال الدين) وقصدت تسابة أحزان بزيارة (نبى الله شمويل) . ورافقنا إلى زيارته الأخ الشيخ أحمد الميقاتى (٤) وغيره من الأصحاب ، وأقمنا معهم فى (بتيونيا) إلى أن صلينا الظهر بجامعة وودعناه ومن معه من رفاق ، وسرنا والدموع لها وقع على الخدود الطامة ، وبتنا فى قرية (مابود) ودعانا فى الصباح الأخ على بن بدير إلى (دير غسان) فلم نجبه إلى المقصود لنفرة قلب من أهلها ، فقال نجمل الدعوة إلى (شوفا) فأجبته ولم نبت إلا لدى الأخ الشيخ رضوان الزاوى وأقمنا الليلة الثانية لديه ، وطرنا إلى (صنير) ومنها إلى (الخربة) بقصد أبى الحسن والإقبال عليه ، ثم قرأنا له ولجيرانه الربعة وأهديناها إليه ، ومنها أتينا المائين وبتنا (جاعين) ، ولما أشرفت على علم الهدا ، قبل الوصول إليها التمست منه الندا ، وكتبت على ظهر الدابة ما أمليه من أبيات :

علم الهدى أهدى لنا الأرواحا فأراح أشباحا بلى أرواحا

وتوجهت ثانى يوم إلى نابلس المحروسة ، التى بمياهها ورياضها عروسة ، وأقمنا بها ثلاثة أيام ، وأخذ بها العهود جمع أحبة ، ثم بتنا فى (كفر قدوم) بانشراح ينفى الهموم ، وبتنا أول النهار بحظ « وبسط وسرور » ورافقنا الأخ الحاج حسن بن مقلد (الجيوسى) ، إلى قرية (كفر زيباد) وبتنا بها وأتينا (كفر جمال) ، وبتنا (الطيبة) بأنس وجمال ، وتغدينا فى قرية (ارتاح) وودعنا الحاج زين محب بترك الحظ ارتاح ، وبتنا فى (شويكة) وتغدينا فى (عتيل) وبتنا فى (زيتا) وأخذ بها العهد الأصيل جماعة ، وممن صحبنا إلى الشام الأخ القديم العهد ، الشيخ أحمد الباقانى (نسبة إلى قرية باقا)

وقد ارتاح الأصحاب فى المراح وزمارين (٥) وبتنا فى (صرفند) (٦) واصطحبنا فى عتليت وهى قلعة عجيبة البنا ، اعتنى فيها بانيها كل الاعتنا ، وزرت مقام الخضر عليه السلام ، وصليت الظهر فى قرية غب الإكرام ، وبتنا فى (المغار) لدى أولاد الشيخ سهل رفيع المنار ، وبعد صلاة العصر توجهنا إلى (كفورتا) ومضينا إلى (البروة) وأضافنا بها الشيخ على بن الكيال ، وصلينا العصر فى قرية (عمقا) عند محب له حسن لقا ، وجاءنا محمد سعيد نجل المرحوم الأخ السيد محمد السلفيتى ، وتوجهنا منها إلى موطن الشيخ حسين وبتنا لديه فى (جدين) وكنا فى السير مجدين ، وصلينا العصر فى (ترشيحا) المريحة من الأتعاب والمليحة الفيحا ، وأقمنا فيها إلى ظهر اليوم الثانى بعد ما دعانا المحب الفانى الشيخ أحمد نجل الشيخ حسين وقد بذل الطاقة فى الإكرام ، وبتنا عند (قلعة) محمد نافع ، وحين أتيت فى الصباح (القاسمى) جاءنا من أولاد مراد ، حسن وخالد ، وصحبتهم الأخ الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ عبد الهادى الصفدى

الكلام بقية سامح الخالدى

(٣) اسم حى من أحياء القدس ، يقع إلى شمال المدينة

(٤) أو الوقت . عالمة مقدسية كان عليها أن تحسب ميقات الصلاة فى المسجد الأقصى

(٥) هى مستعمرة زكرون يعقوب الآن

(٦) جنوب عتليت وهى غير صرفند قرب الرملة